عالم المجهول

كما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، ليست سوى صور مكبرة من نظريات العقل الانساني ، تلك عادة على نماذج تستمد من تجاربنا اليومية كروزبار

لا شك في اننا اذا انكرنا العالم المجهول ، نكون قد بعدنا جهد البعد عن أسلوب العلم نفسه . فان العلم لم يحط بكل شيء ، ومجاله محدود بالظاهرات المحسوسة دون المعنويات . فعالم الماهيات برمته عالم مجهول ، ولا يدعي العلم انه في مستطاعه ان يكشف سر الماهيات بطرقه المعروفة . وما دام العلم قاصراً عن ذلك ، فان من الطبيعي عند الذين يعرفون حدود العلم ، ويؤمنون بقصوره عن ادراك الماهيات ، وحتى عن تعليل جميع الظاهرات ، أن يعترفوا بأن أشياء العالم المجهول لا ينبغي ان ترفض لأول وهلة ، لأن العلم لا يتناولها بأسلوبه ، أو لأنها بعيدة عن أسلوب العلم .

ان نزعة العلم — Science — وطريقته ووجهة نظره ، وعلى الجملة كل ما يقع تحت مفهوم العلم من أشياء العقل البشري ، شيء حادث من مكتشفات الأعصر الحديثة . بل اننا لا نبالغ اذا قلنا مع القائلين بأن تحديد طريقة العلم ووضعها على قواعد خاصة ثابتة ، كان أبلغ أثراً وأعمق فائدة للانسان من أعظم المكتشفات الحديثة جميعاً ، اذ باستكشافها ، لم تعد قضايا العقل الانساني وكفاياته ، تتخالط ذلك التخالط الذي ظهر جلياً واضحاً في صفحات التاريخ طوال العصور الأولى .

مما لا مشاحة فيه ان جنوح العقل الى التساؤل عن حقيقة الأشياء ومصادرها ، وحوادث الكون وظاهرات الطبيعة ، كان في الواقع أول الضرورات الجوهرية التي أفضت بالانسان منذ أبعد العصور الى البحث وراء الحقيقة . فالانسان الأول عندما نزع به الفكر الى تصوير نظرياته الروحانية التي كان يعلل بها حقائق هذا الوجود ، لم يضع البذرة الأولى للدين وحده ، بل غرس مبادىء العلم وقضايا الفلسفة .

فالأساطير والخرافات ، قد تضمنت من العلم بزوراً ، كما حوت من الدين مبادىء . غير

ان العلم قد احتاج الى عصور متطاولة ومرغلة في القدم، حتى أصبح له وجود مستقل بذاته. فان نزعة العقل الى البحث، ان كانت قد صورت منذ القدم مختلف صور الاديان ونظمت مبادىء الفلسفة الأولية، فان العلم لم ينفصل عن الفلسفة ولم تفرق كفايات العقل بين قضايا الفلسفة ومبادىء العلم ونظرياته، الا منذ عهد قريب.

إن كل الباحثين في تاريخ الفكر الانساني يعتقدون بحق ان فرنسيس باكون أول من وضع العلم حدوداً فصلته عن الفلسفة. وديوع «منطقه الحديث» يعد أول عهد العلم بالوجود المستقل. أما ما ندعوه اليوم «الاستكشاف العلمي» الراجع الى العكوف على درس الطبيعة، فقد أدى بباكون الى القول بأن الطريقة المثلى التي يجب ان نمضي عليها في حل مشكلات الحياة ومسائلها، هي الطريقة العملية المعارضة للطريقة الفلسفية، التي ذاعت في القرون الوسطى، وكانت تعمد الى المناقشات الكلامية، والعلم الضروري.

ان من أخص ما نحتاج اليه في هذا المؤلف أن نظهر الفرق بين نزعة العلم ونزعة الدين والفلسفة. أما الدين والفلسفة فنزعتهما ذاتية Subjective محدودة، في انها تنسب، أو تحاول ان تنسب، قيمة ذاتية خاصة لحادثات الحياة وظواهرها، وهي في أهم وجوهها عبارة عن معرفة الوجود بشكل عام مطلق مستمد من الرغبات والضرورات الراجعة الى الشعور أو الوعي الكامن، والى روح الانسان اذ تزداد الى النظر في حياتها الداخلية أكثر من نظرها في عالم الطبيعة الخارجي. أما نزعة العلم فيقرر العلماء بأنها غير ذاتية، بل موضوعية Objective عامة. والعلم ان كان في حقيقة وجوده ومرجعه، وبحكم العقل الانساني إزاء الكون، ذاتي كالدين والفلسفة، الا ان موضوعية العلم تنحصر في انه ينظر في عالم الطبيعة الخارجي، أكثر من نظره في طبيعة الروح المستترة المختفية وراء الظواهر المرئية.

يعمل الدين كما تعمل الفلسفة الى العالم المنظور ويودان بمطالب يحاولان من طريقها ان يخلقا جواً ملائماً لمجموعة من الرغبات والانفعالات الخاصة. أما العلم فيظهر خلواً من كل شيء ولا يصل الى العالم، الا ليعرف الكون من طريق النظر في طبيعته. يترك العلم الطبيعة حرة في أن تلقي في روع كل بشر سرها وروايتها بلغتها الخفية. أما الدين والفلسفة فلا ترضيان الطبيعة أن تتكلم بلغتها، فيضعان لها لغة، وينتصبان لها أسلوباً من البلاغة مخالفاً لبلاغتها، يرجع في كل الحالات الى استيفاء أغراضه الأولية، لا الى الترجمة عن حقائق الكون كما تريد الطبيعة ان تلقيها في روعنا.

ولعلنا يكفينا في هذا البحث أن نعرف مما سبق القول فيه اننا لا نقصد بالعلم إلا كل ما خرج عن حيز الآداب والفن والدين والفلسفة. بحيث يكون ذا قواعد راهنة لا ينتابها

التغيير والتبديل . ولا شك عندي ان من أعظم ما كشف للعقل عنه في الأعصر الحديثة ، لا طريقة العلم ، ولكن تيقن أهل العلم بأن للعلم حدوداً يقف عندها . فان هذا الكشف قد جعل العلم يترك ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشري ، إذ بان لأهله أن وظيفة العلم تنحصر في « وصف » حقائق الكون ، لأن العلم يتناول معرفة الظاهرات وآثارها وعلاقة بعضها ببعض ، وان وظيفته بعيدة عن « تفسير » الماهيات . بذلك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة البشرية على نزعات الوهم التي سادتها زمناً ، وتجددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل ، فترك للدين والفلسفة سلطانهما ، وحُدِّد للعلم حيزه .

ولكن هنالك بعضاً من الذين لم يهتدوا بعد إلى تحديد كفايات العقل ، ممن يزالون ينكرون بأن هذه العاصفة ، عاصفة العلم ، قد نامت ، ولا يزالون يريدون أن يخضعوا طبيعة العقل إلى ناحية واحدة ، ناحية العلم الموضوعية ، مستبدين غير محرَّرين من فورة القول بأن العلم هو الجدير وحده بأن يتبناه العقل .

أما هؤلاء فيكرون « العالم المجهول » ويقولون لا « مجهول » في عالم العلم ولا في عالم العقل . وهؤلاء نضع أمامهم ست مسائل من مئات المسائل ، ونتحداهم أن يثبتوا لنا انها لا تدخل في عالم المجهول ، وان العلم يمكنه أن يفسرها بطرقه المعروفة . فاذا استطاعوا فليس هنالك عالم مجهول ، وإذا عجزوا ، كان اعترافهم بالعجز ، اعترافاً بأن عالم المجهول أرحب وأوسع من عالم المعلوم ، واستتبع ذلك الاعتراف بحقيقة أخرى هي ان كل خطوة يخطوها العلم نحو معرفة شيء من عالم المجهول ، إن ضيقت شيئاً ما من أفق الجهل ، فانها تزيد كثيراً من آفاق المجهولات .

١ — المسألة الأولى : الاعتقاد بوجود عالم خارج عن حيزك .

خذ مثلاً النكأة التي تكتب عليها . كيف تعرف أنها خارجة عن حيزك ؟ إذا نظرت اليها أو لمستها أو وقعت تحت حسك بحال من الأحوال ، فكل ما في مستطاعك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس مختلفة موجودة فيك ، وليست خارجة عن حيزك . لا في لونها أو صورتها ، بل أيضاً في صلابتها وفورتها . والدليل على ذلك أن فقد أعصاب البصر يمنع عليك أن تراها . وان فقد أعصاب اللمس يمنع عليك أن تحس بها . وان فقد الحواس جميعها يمنع عليك أن تدرك أن لها وجوداً البتة . ذلك في حين انه وان لم يكن في مستطاعك أن تعرف من وجود تلك النكأة « عليًّا » إلاّ إحساسات كائنة في حيزك ، إلاّ أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة في حيز خارج عنك . فاذا اعتقدت

بما يخالف ذلك ، وأخذت تؤدي عملك بما يوحي اليك به اعتقادك هذا ، كان ذلك دليلاً على ان ميزان العقل قد اختلَّ وتضعضعت ألفته .

٢ — المسألة الثانية : وجود ذلك الشيء الذي ندعوه العقل في ذوات من البشر غير ذواتنا .

كيف أستطيع أن أعرف أن صديقي الذي يماشيني يحوز شيئاً يقال له العقل ؟ اني لا أستطيع أن أراه أو أحس به أو أتناوله بتجربة اتخذ مجهر الطبيب أو مشرط الجراح أو مجهزات الكيماوي ، أداة لها . فاذا كان معتقدي في عقل صاحبي يعود إلى مقدار ما أستطيع أن أعرف منهُ علميًّا ، لما استطعت أن أعتقد في وجوده مطلقاً ، لأن مفخرة العلم ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس . فان وجود العقل في صاحبي كوجود « واجب الوجود » : كلاهما اعتقاد إلهي . إننا لا نستطيع أن نعرفه من طريق العلم ، وفي الوقت ذاته ملزمون بالاعتقاد به ، كأحد الفروض الضرورية الجوهرية التي يقوم عليها أكبر جزء من معرفتنا .

٣ — المسألة الثالثة : الاعتقاد في تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملذات .

كيف ندرك أن العقل متفوق على المادة ، وان العواطف العقلية أزكى طبيعة من العواطف الحسية أو حب الذات ؟ كيف ندرك ان الشجاعة وكرم الأخلاق وتضحية النفس ، أسمى طبيعة من حب الملاذ والخشونة والحسيات بضروبها ؟ ان خلايا المخ التي تنشأ من تفاعلها وحركتها تلك الانفعالات والخصائص المختلفة ، كلها تماثل المادة ، ولا تدرك ، كالمادة ، شيئاً من هذه الانفعالات . ونعرف من جهة أخرى ، وبقدر ما يسمح لنا به العلم الطبيعي ، ان هذه الخلايا متشابهة في المرتبة والقدر . ومع كل هذا نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بأن هنالك فرقاً في المرتبة والقيمة بين الانفعالات المتشاكلة ، ولولا هذا الاعتقاد لأصبحت العلوم والمجادلات الأدبية برمتها سخرية وتضليل . وهنالك تنعطل المصالح العظمى في حياة الانسان ، كالتفريق بين درجات الفضيلة والرذيلة ، والمدح والذم ، والشرف والاسفاف ، أو انها تصبح على الأقل أشياء غير واقعة أو مضادة للبديهة .

٤ — المسألة الرابعة : الاعتقاد في بقاء القوة . أي حقيقة أن كمية القوة الموجودة في الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص .

يقول العلامة هربرت سبنسر ، كبير مفكري العلماء في القرن الماضي ، إن هذا الاعتقاد أساس كل العلوم الحديثة ، وانه النبع الخفي الذي تستمد منه كل النواميس الطبيعية . يقول سبنسر إن كل النواميس الطبيعية الأخرى ليست سوى توابع تعود إلى هذه الحقيقة

العظمى . وكل الاستنتاج العلمي « يفرض » ان القوة ثابتة ؛ لأنها إذا لم تكن كذلك ، أصبحت أدوات قياس الأبعاد ، التي هي في ذاتها عبارة عن قياس القوة الجاذبة ، وكل أدواتنا الأخرى التي نحقق بها استنتاجاتنا العلمية ، متغايرة بين يوم وآخر ، أو بين ساعة وأخرى ، وبذلك تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . لذلك كان مبدأ بقاء القوة ، ولو لم نستطع أن نثبته علميًّا ، اعتقاداً إراديًّا . والعلامة « سبنسر » يعتقد أن هذا الفرض ، ولو كان أساس العلم ، إلاّ أن العلم يعجز عن إدراكه . وهذا مثال حق يثبت قاعدة ان كثيراً مما لا يمكن أن يدركه العلم الطبيعي ، يجب أن يعتقد في وجوده ، إذ لولا هذا الأمر ، لتحطّم ذلك الهيكل النظامي الذي ترتكز عليه معرفتنا .

٥ — المسألة الخامسة : الاعتقاد في أن المادة توجد بوجود قوّتي الجذب والدفع .

وهذه مسألة أخرى تحقق لدينا أن من الحقائق ما لا يفقهه العلم ، مع استحالة عدم الاعتقاد به .

أما ان قوتي الجذب والدفع حقيقة طبيعية ، فذلك ما لا سبيل إلى إدحاضه . فاننا إذا أخذنا جسما وأردنا أن نفصل بعض أجزائه عن بعض فانهُ يقاوم مجهودنا . وكذلك يقاومنا إذا أردنا أن نضغط أجزاءه ، منبئاً بذلك انه إنما يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع في آن واحد . وإلى هذه الحقيقة تعود ظاهرة التفاعل وعدم التفاعل في العلم الطبيعي ، بل وفي أجزاء الطبيعة برمتها . ومع كل هذا فان هذه الحقيقة تعدو الادراك العلمي في تعليل كيف ان دقيقة واحدة تجذب أخرى في حين انها تدفعها وتقاومها .

وفي ذلك يقول « سبنسر » — « إننا لا نستطيع أن نأتي بقطعة من المادة يظهر فيها أن جزءاً يجذب آخر في حين انه يدفعهُ . ومع هذا ، فان الاعتقاد بذلك الرأي ضروري »

٦ — المسألة السادسة : الاعتقاد في السببية العلمية .

وهو عبارة عن الاعتقاد في ان كل نتيجة لا بد لها من سبب يناظرها في القيمة . وهو اعتقاد في حقيقة نساق الى اليقين بها ، ولا يمكن معرفتها من طريق علمي .

ليس في تتابع وقوع الظاهرات ما يسوقنا إلى الاعتقاد باتصالها اتصال العلة بالمعلول . وكل ما في مستطاعنا ان نرى ان هنالك سلسلة من سوابق ولواحق . ومع ذلك نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بتلك الحلقات غير المرئية من السببيات التي تربط بعض الأشياء ببعض ، ذلك الاعتقاد الذي يحفظ علينا ألفة العقل ونظامه . والسبب في ان حقيقة السببية العلمية لا تقتدر على الوصول الى الكشف عن ماهيتها ، راجع الى انها ليست غير مظهر من مظاهر بقاء القوة . وما دام بقاء القوة لا يمكن معرفته من طريق العلم ، فيمتنع ذلك أن يمتنع على العلم

معرفة ماهية السببية . فاننا عند ما نقول إن نتيجة مّا يجب ان يكون لها سبب ، فانما نعني ان القوة التي يتكوّن منها ذلك السبب لا بد من ان تكون قد استمدت من ناحية اخرى، أي ان لها سبباً عنه حدثت . فان نتيجة ما مثلاً قد تقع تحت حسناء وقد تمثل لها بعدد أربعة، فاننا حينذاك نعتقد أيضاً ان اثنين واثنين او ثلاثة وواحداً ، لا بد من أن تتقدم وجودها . أما الاعتقاد بأن الاربعة يمكن وجودها من غير وجود اثنين واثنين أو ما يساويهما وجوداً سابقاً على الاربعة ، فاعتقاد بأن للقوة قد حدثت بعد العدم ، وفي ذلك نكران لحقيقة بقاء القوة

بذلك نرى ان القواعد الاولية التي تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا المنظومة ، يجب ان يعتقد بها ولو لم يكن في مستطاع العلم أن يعرفها .

أليست هذه عوالم مجهولة ، يعترف بها العلم ؟

اسماعيل مظهر

عش عمرك

الوئيدان

لأهل حزر الوئيدان عادة في الزواج من أعجب ما يروي الاجتماعيون . فللرجل منهم حق التزوج من عدد من النساء بقدر ما يستطيع أن يكفل الوئيدان بالصيد . وللمرأة حق التزوج من عدد من الرجال بقدر ما تستطيع أن تخدم منهم في بيتها . والزوجات يؤخذن بالاسر او بالشراء من الآباء . فاذا أسرت زوجة أو اشتريت بقي بعل زوجها ، أي هرب بها واختفى عن الاعين ، تشبثاً بعادة جرى عليها اهل الكهوف منذ أزمان موغلة في القدم .

فاذا تزوج رجل من امرأة بذل جهده في أن يضم الى حرمه معها كل أخواتها الصغيرات ويبيت عمومتها وخئولتها . وعلى الكبس من ذلك ، فان امرأة متزوجة من رجل ما تصبح بحكم العادة زوجاً لاخوة بعلها وأبناء عمومته وخئولته أيضاً .

وعذاب الاولاد قدر . وصنف العذاب الدائم عندهم ، هو ذلك الصنف الدائم بين الانكيمو خاصة . فان الطفل اذا زاغ في البكاء والصخب ، عمدت أمه الى الماء فغطت فيه . فاذا كان الطفل شتاء ، تجرته في نجوة من الثلوج ، فاذا امتزج الماء البارد الغرور فعل فيه ما يفعل السحر ، فكف عن البكاء وهدأت أعصابه .